

فائدة من أفكوهة^١

ذكرني الجزء الثاني من كتاب الرافعي بجزئه الأول، وكنت قد رأيته ولم أقرأه إلا إلمامًا. فلما تناولته هذه المرة كان أول ما انفتح لي فيه فصل في مناطق العرب. فقرأت منه إلى قوله: «وكذلك وجدوا اللغة الهيروغليفية القديمة، وهي من أقدم اللغات المعروفة ليس من حروفها في المنطق «ب ج د ز ظ ض» بل أنت ترى الدليل الذي لا سبيل إلى رده في هذه الحروف الطبيعية الخالدة التي لا يُزاد فيها ولا يُنقص منها، وهي ما يتهياً في منطق الحيوان السائم فإنها على قدر الحاجة الحيوانية مما لا يتجاوز معنى الإحساس الذي هو النطق الباطني.»

وكأنما بدا للمؤلف أن بين القول بصدور اللغة في الحيوان عن الإحساس، وبين كونه يتعلم حرفًا أو أحرفًا من لغة الناس، تناقضًا ولبسًا لا يحسن أن يترك بغير تفسير واستدراك، فكتب في الهامش: «أما الحيوان المروض المأخوذ بالعناية والتعليم والتلقين فقد يقتبس جملة من حروف اللغة التي يعلم بها، وبذلك تأتي لبعض الألمانين أن ينطق كلبه بألفاظ خالصة من اللغة الألمانية، ولكنها في الجملة من حاجات الكلب الطبيعية كالأكل والشرب فلا تخرج عن معنى الإحساس أيضًا.»

وهذه أفكوهة لا ضير على الأديب الرافعي، ولا على أحد سواه في أن نتخذ منها فائدة أو نقيس عليها مثلًا نبين به طريقة بعض الناس في القياس.

^١ المؤيد ١٦ مايو ١٩١٤.

الكلام في مخارج الحروف. فكان سبيل الرافعي بعد أن ذكر لغة الهمج وأتى على ما ينطقونه من الحروف وما لا ينطقونه، ثم أطنب فذكر لغة الحيوان «الطبيعية الخالدة» أن يقارن بين اللغتين، فإن توسع فليبين كيف ترقى لغة الهمج عن لغة الحيوان ويظهر منزلة الأصول الصوتية الأولى من اللغات قاطبة، وإلى أي حد تتقارب فيها أصوات الحيوان وأصوات الإنسان. ولكنه جاء إلى هذا المسلك المأبور فأغلقه حين قضى على حروف الحيوان بأنها لا يُزاد فيها ولا ينقص منها. وإنما كانت جملة معترضة جاء بها لتحلية الكلام فاعترضت كما ترى بينه وبين سبيله. وأحب الرافعي أن يكون عميقاً في حكمه، بعيد الملاحظة في رأيه، فأعرض عن آلات النطق في الحيوان ونزل إلى مقر الإحساس منه. فمد بسبب بين خفة الحرف أو ثقله على اللسان، وبين ما سماه النطق الباطني، ولما علم أن العلماء سهلوا على جهاز النطق في الكلاب أن يتحرك ببعض الألفاظ الأوروبية لم يعلل ذلك بأن جهاز النطق في الحيوان مهياً للتحسن والاكتمال، ولا بأن الأصوات الحيوانية أصل نمت منه فروع اللغات الإنسانية. بل رأى أن ذلك إنما كان لأن الكلمات التي تعلمها الكلب «كانت في الجملة من حاجاته الطبيعية كالأكل والشرب فلا تخرج عن معنى الإحساس أيضاً».

وعلى هذا فالكلب لم يع من الألفاظ إلا ما هو من معنى الطعام؛ لأن إحساس الحيوان قاصر على ما يتصل بمأكله ومشربه، وما ناسب ذلك من الشهوات التي يضيق نطاقها كلما انحط المخلوق في مرتبة الخلق، وليس لأن العالم الألماني خفف عليه نطق الكلمة بالعود والمران. كذلك يقول الرافعي! فلو أن العالم عالج تلقينه اصطلاحاً هندسياً أو أخلاقياً لما نسب به؛ لأنه ليس من حاجاته الطبيعية. نعم ولو كان هذا الاصطلاح قريباً في حروفه من كلمة في معنى الطعام كالمقاربة التي بين كلمتي سمك وسمك وعظم وعظم! كذلك لو عالج العالم الألماني أيضاً أن يلقن نملة أو برغوثاً ما لقنه ذلك الكلب لما استعصى عليه ذلك؛ لأن الأكل والشرب من حاجات النمل والبراغيث كما أنها من حاجات الكلاب، ولا عبرة باليون البعيد بين آلات النطق في الكلب وبين آلاته في النملة أو البرغوث، فإن هذا لا يضعف من ذلك الإحساس الطبيعي أو النطق الباطني!

وكما سهل على الكلب أن يتلفظ بكلمات الأكل والشرب في اللغة الألمانية، كذلك يسهل عليه أن يتلفظ بما يقابل هذه الكلمات في لغات العالم أجمع، وهي كلمات يتألف من مجموعها معجم ضخم يشتمل على مخارج الحروف الآدمية من أثقلها إلى أخفها. فمن أين للكلب هذه القدرة؟ أو يكفي أنه يسغب ويظماً لتكون قوة النطق فيه كما هي في الإنسان؟

هذا مثال من أقيسة الرافي. وإن الرافي ليعلم كما نعلم أنه منشئ مكين، ولكنه يحس من نفسه اضطراب القياس، ويظن أن الناس يحسون منه ما يحسه من نفسه، فيكثر من القياس كما يُغالي الفقير بظاهره ليستر فقره، وهو كلما عمد إلى الاستقراء والاستنتاج وقع في مثل هذا الخطأ.

ونحن لم نقل عبثاً في مقالنا عن جزئه الثاني أنه أعمل القلم ولم يُعمل الرأي، ولكننا نقول الآن: إنه ما كان ليستطيع أن يصنع غير ذلك. فإن شاء عددنا كتابه كتاب أدب، ولكننا لا نعهده كتاباً في تاريخ الأدب؛ لأن البحث في هذا الفن متطلب من المنطق والزكاة ومعرفة «النطق الباطني» ما يتطلبه الرافي نفسه ولا يجده في استعداده.

الظواهر والبواطن

ليس بين ظواهر الأشياء وبواطنها حد فاصل، فكل البواطن ظواهر مكشوفة لو أحسن النظر إليها من الجهة المثلى، وكل الظواهر بواطن خفية لو أسىء النظر إلى تلك الجهة منها. ومن البديهات عند قوم ما يعد أسراراً مغلقة عند قوم آخرين.

الشر الدخيل

من الناس من يفعل الخير لأنه لا يجد حجة يسوغ بها عمل الشر، أو يوارى بها فعل السوء، وليس يزعه عن اختلاق تلك الحجة إلا بلادة حس وجمود عقل. أما من هم أمهر من ذلك من الأشرار وأطبع على الأذى فيخلقون الحجة في كل حين، ويفعلون الشر كلما وجدوا حجة له.

ذم الحياة

إن الذين يذمون الحياة هم الراغبون في حياة خير منها، لا الراغبون في الموت كما يتوهم الكثيرون، وربما كان ذو النقمة والسخط على الحياة أرغب فيها ممن يرضون عنها ويرتعون في صفوها ونعيمها. كما يكون المقامر الخاسر أرغب اللاعبين في ملازمة مائدة اللعب إلى النهاية.

كل ذي عاهة جبار

يؤثر الإنسان أحياناً أن يكون عرضة للمقت والغیظ على أن يكون عرضة للرحمة أو الاستخفاف، وهذه علة ما يرى من أصحاب العاهات والمثالب المقبوحة من تعمد إسقاط الناس واستنفاد صبرهم. يحاولون الهرب من رحمتهم إلى نقتهم، ومن إسانهم عليهم بالعطف إلى مساواتهم لهم بالمنازلة.